

البرجماتية - مقارنة نقدية

د.آيت أحمد نور الدين أستاذ محاضر
جامعة الدكتور الطاهر مولاي،
سعيدة، الجزائر

(ملخص)

البرجماتية طريقة تفكير نافعة تبحث عن أسهل وأسرع السبل للتعامل مع الوضعيات التي تواجه الإنسان وإيجاد الحلول المناسبة دون مراعاة لأي ضوابط أو قيود أو قيم، وإن كانت البرجماتية قد عرفت عن طريق أمثال جيمس وديوي في القرن 19 فهذا لا يدل على أنها أمريكية المنشأ، إذ أننا نجد من بين فلاسفة الإغريق من نادى بها أمثال بوليب POLYBE و بروتاغوراس PROTAGORAS . أما عن سبب ظهورها في أمريكا خاصة، فذلك راجع لاحتكاك الأوروبيين الذين فروا من الأوضاع المزرية والاستبداد الذي ساد أوروبا خلال القرن 18 و 19، فهاجروا بحثا عن الحرية لكن حاملين معهم تراثهم الفلسفي المثالي الأوروبي ، فكانت البرجماتية بمثابة ردة فعل المحليين على الوافدين، وإلا فالبرجماتية تطلق على كل من يفكر بصورة مفيدة في كل مكان وزمان.

الكلمات المفتاحية:

البرجماتية - فردانية - نافعة - عقيدة لا دينية - أمريكية.

Abstract:

Pragmatism is a useful way of thinking, looking for the easiest and fastest way to deal with situation facing human beings and to find appropriate solutions without taking into account any restrictions or values. If Pragmatism was known by ' JAMES ' and 'DEWEY' in the 19th century it does not indicate that it is of American origin , since we find among the philosophers of the Greeks such as ' POLYBE' and 'PROTAGORAS'. As for the cause of its appearance in America in particular, it is due to the miserable conditions and tyranny that dominated Europe during the 18th and 19th century they migrated in search of freedom, but carrying with them their Ideal European philosophical heritage. So Pragmatism was as a reaction of the locales towards the expatriates. Pragmatism is called on to everyone who thinks usefully in every place and time.

تمهيد :

فعل اليونانيون خاصية العقل الأساسية ، فتأملوا الكون بطريقة قصدية منظمة، فكانت الفلسفة بشقّي مذهبها، وإن كانت النسبة الغالبة منهم قد تفلسفوا لذات الفلسفة ولذات التأمل، فإن فئة منهم قرنوا بين التأمل وأثره على الواقع والفائدة التي تترتب عنه، واعتبروا أن الجهد الفكري الذي لا يعود على صاحبه بالمنفعة، جهد لا جدوى منه ولا قيمة له، وهؤلاء هم بالفعل المؤسسين الأوائل للفكر البراجماتي الذي ينسبه الناس للأمريكيين المعاصرين.

1- البحث اللغوي والاصطلاحي:

-لغة: البراجماتية اسم مشتق من اللفظ اليوناني 'براغما'، وتعني " فعل وخصوصا شيء، ما تعلق بالشؤون، أكانت سياسية أم كانت اقتصادية"¹. فبراغما تشير للشيء الذي من مواصفاته أنه متجسد متعين ومحدد في الواقع، ظاهر للعيان يراه الناس، على خلاف الحالة الشعورية أو الفكرة التي تكون في الذهن، لا يعرفها إلا صاحبها الذي يعيشها. إذن فكلمة براغما تنطبق على الجانب العملي التطبيقي، وعلى هذا الأساس، فكل ما هو عملي، سلوكي مجسد محسوس مرتبط بالجانب الواقعي المعاش هو براجماتي.

وبراغما أيضا التي تعني العمل، " مذهب فلسفي يقرّر أن العقل لا يبلغ غايته إلا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجح، فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة، أي الفكرة التي تحققها التجربة"². -اصطلاحاً: في العام 1878، عرف مصطلح البرجماتية أول ظهور له في الفلسفة من قبل الفيلسوف الأمريكي شارل بيرس، في مقال له بعنوان: (كيف نجعل أفكارنا واضحة؟)³. لكن لا أحد من البشر اهتم بهذا الأمر أو حاول تحليله وتوضيحه.

ثم يقول وليام جيمس: " لقد مرّ على استعمال بيرس لمصطلح البراجماتية مدة عشرون عاما دون أن يُعره أحدا أدنى اهتمام، إنه أنا - في مقال ألقينته في جامعة كاليفورنيا عام 1898- من أعاده إلى النور عندما طبّقته خاصة في الدين"⁴.

إذن لا يستطيع عاقل إنكار دور وجهود جيمس في هذا المجال، بل " إنه لم تأخذ كلمة براجماتية تعني النجاح العملي الواقعي إلا معه، فالفكرة لديه لا تكون صادقة وحقيقية إلا إذا كانت خصبة قادرة على الإنتاج والتطابق مع الواقع"⁵.

¹ أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، المجلد 2، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط2، 2001، ص 1012، 1013.

² جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، د ط، ص 203.

³ William James, Le Pragmatisme, traduit par E. Le Brun, FLAMMARION, Paris, 1968, p49.

⁴ Ibid. p 50.

⁵ Bertrand Vergely, Dico de la Philosophie, Editions MILAN, Toulouse, France, 1998, p203.

إن الفلسفة الأمريكية عندما تناولت فكرة البراجماتية، فقد قصدت بها النجاح العملي للفكرة. فالفكرة الواضحة الصادقة هي ببساطة الفكرة النافعة، التي تجلب لصاحبها فائدة ونجاحا. والبراجماتية ليست لونا جديدا من ألوان التفكير أو "مودة وليست حتى نظرية للحقيقة، بل هي نظرية في الطريقة، مقالة جديدة في المنهج".¹ وهذا يعني أن البراجماتية ليست مذهباً فلسفياً يبحث عن الحقيقة أو المعرفة على غرار ما تفعل الفلسفة المثالية أو النقدية أو غيرها، ويمكن للفرد عندئذ أن يقبل بها أو يرفضها، لكنها تعتبر درساً يحدد الأداة أو الوسيلة التي ينبغي اعتمادها من قبل الجميع للتفكير السليم.

وكأنها تعيد إلى أذهاننا الدرس الذي أعطانا إياه الفيلسوف الفرنسي روني ديكارت عندما كتب مؤلفه الشهير: (مقالة في المنهج) وكان يقصد به أن يحدد لنا القواعد الواجب على العقل إتباعها من أجل أن يسلم من الوقوع في الخطأ، وهي قواعد عالمية شاملة للجميع.

ويواصل في ذات السياق الفيلسوف الأمريكي بيرس محددًا معنى البراجماتية: "إنها لا تقترح أو تعرض مذهباً ميتافيزيقياً ولا تحاول تحديد حقيقة الأشياء وماهياتها، بل هي مجرد طريقة لتعيين دلالات الكلمات الصعبة والمفاهيم المجردة".² ولو حللنا هذا الكلام وتساءلنا عن الشيء الذي يحدد ويضبط دلالات الكلمات الصعبة، نجد أنه القاموس، المنجد الذي يستنجد به الجميع لفهم المفردات، ولا مناص لأحد من أن يستغني عن المنجد، وهذه قيمة البرجماتية لديه.

إن البراجماتية لا تتفق أو تلتقي مع الفلسفات الميتافيزيقية التي تقضي مدة طويلة في تحليل ومناقشة قضايا غيبية، قضايا بعيدة عن حياة الناس الواقعية دون أن تخرج من هذا النقاش بحل مناسب، واضح أو تخرج منه بأدنى اتفاق. فهي تضع ذلك كله جانبا، وبدلاً من التفكير الطويل في أمور لا تُسمن ولا تُغني من جوع، تحاول أن تكون كخارطة الطريق يستعملها الإنسان ليحسن من وضعه.

2- البحث التاريخي ومتابعة الجذور:

إن البحث عن أصول كلمة براجماتية تُعيدنا إلى الفلسفة خلال القرن الثاني قبل الميلاد، إلى المؤرخ الروماني ذي الأصول اليونانية، بوليب أبوليبوس، المولود عام 208 ق م والمتوفي 126 ق م. هو في الأصل فيلسوف ومؤرخ في آن واحد، اهتمّ بالوقائع التاريخية ليس لمجرد سردها، بل أراد البحث عن أسبابها. "أسره الرومان في معركة ضد بلاده سنة 168 ق م، وأُخذ للعيش في روما، وبعدما أكتشف الرومان قيمته العلمية، ألحقَ بالقائد الروماني الشهير سكيبيو أفريكانوس هازم هانيبال، زعيم قرطاجة عام 146 ق م. اعتُبر شاهد عيان لهذه اللحظة التاريخية للرومان، كما اصطحبه هذا القائد في رحلاته التي أمدته بمادة تاريخية واسعة ودقيقة مما سمح له بإعداد أهم

¹ Gérard Deledalle, La Philosophie Américaine, ED. L'Age de l'homme, Lausanne, Suisse, 1983, p69.

² Ibid.p 71,

مؤلف له (تاريخ العالم) الذي يعتبر أهم وأدق المراجع التاريخية عن الفترة الممتدة بين 220 و 146 ق م، وهو من أربعة أجزاء¹.

إن من يُنقّب في التاريخ، يكتشف أن بوليب أول من وظّف معنى براجماتي أو ذريعي حيث قصد بالتاريخ الرواية المُعبّرة، التي ترمي إلى توجيه السلوك المستقبلي. فهو في مؤلفه " لم يُعن بالميثولوجيا ولا بالنسابة ولا بال عمران وأواصر القرابة بين المدن، بل يعنى بتاريخ الوقائع، وبخاصة الوقائع السياسية، ويُضيف أنه لا توجد عبرة أنفع من تاريخ الوقائع هذا"².

فبحسب هذه الشهادة، لم يتعامل بوليب مع المادة التاريخية أو يُفسر الوقائع بصورة أسطورية كما تفعل الميثولوجيا اليونانية كما فعل هوميروس في قصيدتي الإلياذة والأوديسة، ولم يبحث في التاريخ قصد معرفة أصل الأعراق والأنساب البشرية ليكشف صفاء عرق ما من عدمه، كما أنه لم يهتم بالتاريخ من جهة القوانين العامة التي تتحكم في نشوء الأمم والدول وأقولها كما يفعل العمران عند ابن خلدون أو كما تفعل فلسفة التاريخ عموماً، بل إنه يدرس الوقائع التاريخية لاستخلاص الدروس والعبر والاستفادة من التاريخ لتفادي أخطاء السابقين وعدم الوقوع فيها، كما يُعدّ هذه العملية أنفع العبر التي يمكن طلبها.

فيما يستعيد الفيلسوف الانجليزي فرديناند سكوت شيلر (1864-1937) وهو أستاذ بجامعة أكسفورد" العبارة الشهيرة لزعيم السفوسطائيين بروتاغوراس (الإنسان مقياس الأشياء جميعاً) وهذا يعني أن الحقيقة كتلة مرنة مطاطية، وأن السؤال الوحيد الذي يحمل معنى هو: ماذا يمكننا أن نفعل بالحقيقة؟ وليس ما معنى الحقيقة؟³.

يشير الفيلسوف الانجليزي المعاصر شيلر إلى أنه ليس جديراً بنا أن نطرح سؤال ما معنى الحقيقة؟ لأن هذا السؤال لا يُقدم ولا يؤخر، بينما في المقابل يكون سؤال ماذا يمكننا أن نفعل بالحقيقة؟ هو السؤال الواجب طرحه، لأننا نبحث عندئذ عن سبل الاستفادة من حقيقة ما. وبالفعل، فلو تابعنا الفلاسفة منذ زمن اليونان، لوجدنا أنهم كانوا يبحثون عن الحقيقة لا للانتفاع بها لكن من أجل الحقيقة ذاتها، ولهذا السبب لا شيء من حياتهم تبدّل أو تغير، وظلت أحوالهم وظروفهم كما كانت. فلو تساءلنا عن مؤلفات أفلاطون وأرسطو مجتمعة نجدها تملأ خزانات، لكن ماذا عن قيمتها العملية؟ هل " صدّت هجوم الإسكندر الأكبر وهدمه للدويلات اليونانية بعد موقعة كيرونيا عام 338 ق م حيث فقد اليونانيون استقلالهم وفقدوا حريتهم

¹ محمود إبراهيم السعداني، حضارة الرومان، منذ نشأة روما وحتى نهاية القرن الأول الميلادي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1988، ط 1، ص 33.

² أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مرجع سابق، ص 1123.

³ Serge Hutin, La Philosophie Anglaise et Américaine, PUF, Zémé ED, Paris, 1963, p67.

الفردية"¹. ولم تشفع لهذه الدويلات حتى صداقة أرسطو ولا تعليمه للإسكندر المقدوني؟! وحتى العلوم لدى اليونان آنئذ كانت تتسم بالطابع النظري العقلي المجرد، بحيث كلما بقي العقل في هذا الطابع، كان يقينيا وكلما نزل إلى ساحة الواقع المحسوس، فقد بعضا من صدقه.

إذن فبالعودة لمفهوم شيلر ومقولة السفوسطائيين بأن الإنسان مقياس الأشياء جميعا، ندرك أنه يطلب من كل واحد منا البحث بل والعمل الجاد على تقدير الأمور، و من ثم محاولة البحث عن كيفية الاستفادة منها. لقد قرر بروتاغوراس، وهو زعيم السفوسطائيين، منذ حوالي القرن الخامس ق م أنه "لا يرى شيئا اسمه الخطأ ولا أحد يناقض آخر لأن الإنسان هو الحكم الوحيد على إحساساته وعقائده، وأنه ما دام لا توجد حقيقة مطلقة، فكل إنسان يحكم بما يظن أنه الحقيقة"². أي ما يفيد، وبالمناسبة فهذا ليس عيبا ولا مرضا، بل هو ظاهرة صحية، لأنه يفتح المجال واسعا أمام الفرد، وفي ذلك تحرير لطاقاته ومهاراته.

فالسفوسطائية إذن قامت منذ القرن الخامس ق م، رافضة الاستبداد بكل أشكاله خصوصا الفكري منه، وقامت لرفع حضر التفكير الشخصي، وإعلان مبدأ حرية التفكير، "فالطبيعة في نظرهم لم تخلق الناس عبيدا بل وُلد الكل أحرارا"³.

وهذا يجعلنا نستخلص أن البراجماتية تلتقي مع الطبيعة في مطالبيها ولا تعارض بينهما، بحيث أنه على الإنسان البحث عما يفيد وينفعه، وأن الاختلاف بين البشر أمر طبيعي وآية من آيات الله تعالى، ولذلك خلقهم.

كما يمكن أن نظيف لهذا التنقيب التاريخي عن جذور البراجماتية أو النفعية، جهود وفلسفة اليوناني أبيقور 341-270 ق م، زعيم ومؤسس الأبيقورية، إذ تقوم فلسفته كلها على الابتعاد عن كل نشاط وجهد فلسفي نظري يهدف للتفلسف والبحث عن الحقيقة، وفي مقابل ذلك يُفضّل العمل على تحقيق اللذة والسعادة، ويحدد لها معايير تضبطها.

فاللذة البسيطة، السهلة المنال أفضل من غيرها، واللذة الممكنة أفضل من المستحيلة، وتلك المتاحة خلال كل الأوقات أفضل من تلك التي تتحقق في فترة محددة، وهكذا يمكننا القول أن "فلسفة أبيقور قامت على فكرتين محورتين هما: الدعوة إلى حياة اللذة باعتبارها مسألة طبيعية وبديهية، شريطة أن يمارسها الإنسان باعتدال، وكذلك الدعوة إلى تجنب الآلام والمخاوف النفسية ومن ثم يعيش المرء حالة الأتراكسيا بما فيها من سلام للنفس وصفاء للعقل."⁴

¹ عبد الرحمن بدوي، خريف الفكر اليوناني، دار القلم، بيروت، 1979، ط 5، ص 5.

² حربي عباس عطيتو، ملامح الفكر الفلسفي عند اليونان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992، د ط، ص 179.

³ محمد الخطيب، الفكر الإغريقي، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 1999، ط 1، ص 300.

⁴ مصطفى النشار، مدخل لقراءة الفكر الفلسفي عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، د ط، ص ص 149.

3- المؤسس للمصطلح وأهم المنظرين:

إن من بين الاعتقادات الخاطئة التي ينبغي محاربتها: الظن بأن الفلاسفة الذين يُكونون مذهباً فكرياً أو فلسفياً، يملكون عقولاً متطابقة، ويحملون نفس التوجه والنظرة. والواقع أنه بإمكان فريق من العلماء والفلاسفة الاتفاق على مبدأ جوهري هو أساس الارتكاز في المذهب أو التيار، لكن – والحقيقة هذه – أن العقول البشرية تتميز بالنسبية، وليست أشياءً أو منتوجات صناعية متطابقة، فلا بد من وجود اختلافات وتباينات في نقاط فرعية أو تفاصيل مع الاشتراك في المبدأ العام.

ومن هذا المنطلق، فالبراجماتية الأمريكية لا تشكل مذهباً فكرياً أو فلسفياً متجانساً: إذ بين ممثليه الأربعة الأساسيين بعض الاختلافات مع الإقرار والتأكيد على نقطة مركزية، فهم متفقون على أن البرجماتية لا تخرج عن فلسفة تحاول التفاعل مع العالم الواقعي الذي نعيشه، والعمل على جعله أكثر خصوبة وفائدة، لكن الاختلاف فيما بينهم كامن في المعنى الذي يمنحه كل منهم لهذا الاتجاه: فالأول يطبقه في الجانب اللغوي الدلالي للألفاظ، والثاني في الجانب الديني، والثالث في الجانب التربوي البيداغوجي، أما الرابع فيؤكد على الجانب الاجتماعي وأثره على الفكر. أربعة إذن من كبار المفكرين والفلاسفة الأمريكيين هم في الأصل السبب في نشوء البراجماتية: بيرس، جيمس، ديوي وجورج ميد.

1- شارلس سندررس بيرس: (1839-1914) فيزيائي محترف، هاوي للرياضيات والمنطق، اهتم بشرح دلالات المفاهيم العامة كما يستعملها العلماء، "أول من استعمل مصطلح البراجماتية في الفلسفة، سنة 1878 في مقال له بعنوان: كيف نجعل أفكارنا واضحة".¹ وفي نظره لا يكون للمسألة أية قيمة إلا إذا كانت الحلول والإجابات التي تقدمها قابلة للبرهنة، أما الأطروحات الميتافيزيقية فهي إما قضايا وجمل دون معنى أو دلالة، وإما هي قضايا ساذجة.

وإننا نجد لدى بيرس في فهمه للبراجماتية حرصاً وتأكيذاً على دلالات الكلمات إذ يقول: "البراجماتية لا تمثل مذهباً ميتافيزيقياً، ولا تحاول تحديد حقائق الأشياء، بل ما هي إلا أداة ووسيلة لتقرير معاني الكلمات الصعبة والمجردة".² وهكذا فالبراجماتية عنده تنحصر في البحوث اللغوية المرتبطة بدلالات الكلمات والمعاني، والصواب كل الصواب عنده، أن يجتهد الخطيب أو المتكلم في ضبط وتحديد معاني ودلالات المصطلحات التي يختارها ويستعملها، والتي ينبغي أن تفيد معاني واضحة يستقبلها المستمعون بسلاسة، وأن يتجنب غريب اللغة والكلمات ذات الدلالات البعيدة المجردة الشاقة.

¹ William James, Le Pragmatisme, p 49.

² Gérard Deledalle, p71.

2-وليام جيمس:(1842-1910) تجريبي النزعة بامتياز، من ألد أعداء الأحادية القائلة بالمبدأ الواحد المتحكم والمفسّر للكون، لا يقبل بالمثالية الميتافيزيقية لأنها ترد الكون والحقيقة للفكر وحده كمبدأ وأصل واحد. يؤمن في مقابل ذلك أن الحقيقة مفهوم ديناميكي متطور، مما يجعله من أنصار القول أن العالم لم يكتمل بعد، بل هو في تشكّل دائم ومستمر، ولا يرجع إلى مادة واحدة مثلما يظن الماديون، كما أن الحقيقة لا يمكنها أن تنحل في نظره إلى مصدر أو مبدأ واحد، بل إنها ترجع إلى عديد العناصر التي تشارك فيها.

إليه وحده يرجع الفضل في الصياغة النهائية للفلسفة البراجماتية، ومن ذلك إيمانه أن القضية لا تصح إلا بقدر ما تكون قابلة للتطبيق والتجسيد الميدانيين، أو بالأحرى إلا بقدر ما تُترجم في الواقع على شكل نتائج مقبولة نرضاها.

كما أننا نجده يُصرح في كتابه (البراجماتية) أن: "القضايا الصحيحة هي القضايا التي في مقدورنا أن نفهمها، نوّكدها ونبرهن عليها، وأما القضايا التي نعجز عن فهمها، تأكيدها والبرهنة عليها هي قضايا خاطئة".¹ وبالمناسبة، فكل ما يساهم في نمو وتطور الإنسان، فردا كان أو ضمن جماعة، يعدّه جيمس مفيدا ونافعاً. وفي هذا المعنى يعتبر الدين حقيقياً لأنه من منظور إنساني يؤدي دوره بامتياز، أي أنه أداة مفيدة للبشر، وجيمس ممن أعطوا التجربة الدينية التبرير الأفضل.

تذكروا أن جيمس قرر من قبل أن الشيء الحقيقي هو ما يمدنا بأكبر قدر من الرضا، وهو على خلاف بيرس، يقرر أنه يمكن اعتبار معتقدات ما حقيقية، من دون أن نضطر للبرهنة عليها، شريطة أن يكون لها آثارا ونتائج سعيدة للإنسان.

وفي المسألة الدينية، يذهب جيمس أبعد من ذلك، حيث يعتبر أن المعتقد أو الدين شيء يمكن استعماله، فالإنسان يدعو الله من خلاله، يحبه ويحترمه، وهذه الصورة يتطور الإنسان ويتقدم، على أن التجربة الدينية تبقى تجربة شخصية، ولا يقدّر قيمتها أو يشعر بحلاوتها إلا من يعيشها.

ولا يفوتنا هنا أن ننبه أن وليام جيمس يؤمن بتراكمية المعرفة، ولا يتنكر لفضل من سبقوه، فمؤلفه (البرجماتية) مهذا إلى روح أستاذه جون ستوارت ميل، حيث يعترف في الصفحات الأولى منه، في صفحة الإهداء بدّين اتجاهه قائلا: " إلى ذكرى جون ستوارت ميل أول من علّمني سعة روح البراجماتية، والذي أحب تنصيبه رئيساً لنا لو كان على قيد الحياة".²

3-جون ديوي: (1859-1952) اشتهر بدراساته التربوية والبيداغوجية، رئيس مدرسة شيكاغو. آمن في بداية مشواره العلمي بالمثالية، لكنه ما فتئ أن تحول رأساً على عقب، فتحرر وتنكّر للميتافيزيقا ولكل البحوث النظرية التأملية المجردة. ويعتبر الأفكار وسائل أو أدوات توصلنا إلى الحقيقة المفيدة، لذا اكتسب مذهبه اسم الأدوات.

¹ William James, p144.

² William James, p05.

تشبع ديوي بالبراجماتية متأثراً بوليام جيمس لكنه يخالفه النظرة والموقف، فديوي عالم ذو نزعة مادية ملحدة، لا يقيم للأفكار الدينية أدنى أهمية أو اعتبار، ولا يقبل تصور معارف واقعية خارج ما تقدمه الطريقة المعتمدة في علوم الطبيعة. وهو من أنصار القائلين أن التجربة الحسية وحدها من ينبغي أن تقود وتوجه الفيلسوف، لأنها تعلمنا أن كل شيء متغير، ولا شيء يبقى على حالة مستقرة.

وهكذا، " فلا يكون للفكرة من قيمة إلا إذا أدت إلى نجاح واقعي ملحوظ، وعليه فليس للفكرة إلا أهمية أداتية، ومن هنا جاءت دعوة ديوي لمذهبه بالأداتية.¹" وفي نظره، فإننا لا نقول أن الإنسان يفكر إلا إذا استطاع تجاوز صعوباته المادية، وكل تفكير يوجه لحل وضعية إشكالية. ولا يكون لنظرية علمية من قيمة إلا بقدر كفاءتها على حل تلك الوضعية. إذن فيوجد من جهة التجارب التي لا تقبل النقاش أو الريب، ومن جهة ثانية، الأفكار التي لها وظيفة إكمال وتنظيم عناصر التجربة، تماماً كما أن العامل الجرفي يحاول جاهدا استعمال ما لديه من أدوات لحل مشكلة ما، فإن الفيلسوف كذلك يفكر ثم يفاضل بحرية بين أحسن الأفكار القادرة على حل المشكلة.

فالفكرة إذن لا تكون حقيقية إلا بقدر ما تنجح في إكمال عناصر التجربة، وليست لها قيمة إلا في هذا الاعتبار، أما أن نمنحها قيمة في حد ذاتها فتلك فكرة اعتباطية، فالأفكار قبل كل شيء مجرد أدوات.

وهذا الطابع التجريبي، جعل ديوي من مذهبه الأداتي، وسيلة تأثير هامة في بلده حيث صار المذهب وسيلة دفاع عن الحرية الليبرالية والديمقراطية.

4- جورج هربرت ميد: (1863-1931) معاصر لديوي وزميله في ذات الجامعة، عمل على التوفيق بين الحتمية العلمية الكلاسيكية وبين اللاحتمية المعاصرة والنظرية النسبية، لم يترك كتباً منشورة، بل شرح اتجاهه الفلسفي واعتقاداته في المقالات والدروس التي كان يلقيها في الجامعة، وكان يؤكد دائماً على علم النفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع وأثره على الفكر.

يؤكد ميد على الجانب الاجتماعي الذي لولاه ما تطورت اللغة، إذ لابد لجملة من العوامل والشروط الفيزيولوجية للجسد، وكذا لمجتمع من نمط محدد. فلولا الحياة الاجتماعية ما حصلنا على إنسان يفكر، وعلى أهمية هذا الجانب الاجتماعي من الحياة يشيد فلسفته.

4- الأسباب والمناخ الذي أدى لظهور البراجماتية:

البراجماتية اتجاه فلسفي كغيره من الاتجاهات والمذاهب، وهي -لاشك- نتاج تفاعل عوامل البيئة والمحيط العام الذي ينشأ فيه الفيلسوف، فمن جهة يأتي المفكرون إلى الحياة، كغيرهم، بموروثات بيولوجية واستعدادات نفسية، ومن جهة أخرى يجدون أنفسهم في بيئات جاهزة لم يتدخلوا في

¹ Serge Hutin, p 105.

تشكيلها، فتأخذ هذه العوامل في التفاعل والتأثير المتبادل حتى تنتج لنا، مع مر الزمن، الفيلسوف بوجهة نظر معينة، مرنة قابلة للتغير والتطور، لذا نقول صدق علماء الاجتماع في ما ذهبوا إليه من أن الإنسان هو ابن بيئته وعصره، وأن الفلاسفة لا يخرجون من الأرض كالفطر.

إننا لا نجانب الصواب بتاتا إن نحن قلنا أن البرجماتية هي من صنع أمريكي، إن صحت العبارة، لكن ماذا تمثل أمريكا؟ إنها العالم الجديد، العالم الذي ساعد الحلفاء في انتصارهم على النازية الألمانية، وبعد انهزام ألمانيا، وتركها أرضا محروقة، فرَّوهاجر منها كل من استطاع الفرار. وبديهي أن يكون من بين المهاجرين: مغامرون وتجار، علماء نقلوا وحملوا معهم الاتجاه التجريبي الذي ترسخ مع فرنسيس بيكون وستيوارت ميل في بريطانيا، فيما حمل الفلاسفة المثالية النقدية لإيمانويل كانط والمثالية المطلقة لفريدريك هيجل. وإن كانت الهجرة إلى أمريكا قد بدأت قبل ذلك بكثير، وعليه يمكن اعتبار العوامل التالية من ضمن مجموع الظروف والحيثيات التي صاحبت وواكبت ظهور البرجماتية:

1- رد فعل الفلاسفة المحليين على أولئك الذين قديموا من أوروبا يحملون سمات ومعالج الفكر المجرد والميتافيزيقي، وأرادوا نشر المثالية في أمريكا. قد يقول قائل أو يظن ضان بأن ما نقوله هنا يعني أن البرجماتية لم تنتقل إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وانهزام ألمانيا باستسلام برلين في حدود، أوت أو سبتمبر عام 1945. فهذا الظن خاطئ، وقبل أن يرد إلينا هذا الظن، فإننا نحن ومن تلقاء أنفسنا ومن صميم إيماننا بأننا إذا نحن عطلنا المنهج النقدي، ولم ننتقد حتى أنفسنا، كما قال أرسطو، فلا نكون جديرين بأننا فلاسفة أو على الأقل من ممارسي النشاط الفلسفي.

وعليه، فالعامل الذي نتحدث عنه لا يعني بالضرورة أن ردَّ الفعل هذا لم يبدأ إلا بنهاية الحرب، بل إن الهجرة من ألمانيا وأوروبا عامة، فكرة راودت الكثيرين منذ القرن 17 أو 18، وإلا فكيف نفسر قولنا السابق عن جون ديوي بأنه آمن بالمثالية في بداية مشواره العلمي أي تقريبا في عمر الثلاثين حوالي 1890، فمن أين له بالروح المثالية في هذه الفترة؟

هذا دليل أن المثالية الأوروبية سافرت إما ضمن مهاجرين يحملونها كفكر، أو قد سافرت ضمن انتقال وسفر الأفكار وتلاقحها، لكنها عندما حلَّت في أمريكا، وهي تدعو إلى مقت الواقع الحسي العيني، والغوص بالفكر في عالم باطني خيالي، قوبلت بالرفض إما بالبرجماتية أو بأي أسلوب فكري آخر يمقت البحث النظري العقيم والذي يبحث عن طبيعة الأشياء وعواملها الأولى كعادة الفلسفة، ونادت هذه الفلسفات بضرورة الانكباب على الواقع المعاش مباشرة ومحاولة تغييره لصالح الإنسان.

2- المذاهب الفلسفية، باختلاف مشاربها، تُرجع الظواهر والعالم أو الكون إلى عامل واحد ووحيد، وهذا التفسير بدا للأمريكيين تفسير ناقص، فجاءت البرجماتية لترد الظواهر والكون إلى جملة من العوامل مجتمعة، يقوم كل منها بجزء أو بدور، وهذا اعتقاد وليم

جيمس، كما قلنا من قبل، وخص هذا الاتجاه أهمية الفلسفة بالتركيز على الحياة وخاصة ما يمس الإنسان مباشرة. من هنا نصبت البرجماتية نفسها كأسلوب لحل مشكلات الإنسان، واستمدت هذه الغاية من الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل عندما حدد أسباب تخلف العلوم في أوروبا بقوله: "إن الفلسفة الحقيقية هي تلك التي تأخذ نصب أعينها، وبين يديها المشكلات الحقيقية، وتطرح الأسئلة والقضايا الجوهرية والمصيرية التي تمس الإنسان وحياته"¹. ولو تساءلنا لماذا أخذت البرجماتية بدعوة هذا الألماني؟ لقلنا أن هذا القول يحمل في ثناياه مقومات برجماتية، والبرجماتي هو من يأخذ بالفائدة والمنفعة أين ما كانت وتعينت، ولا يهيمه صاحبها أو مصدرها.

3- انطلقت البرجماتية من صميم الفكر الرأسمالي الليبرالي الذي يُمجد بل ويُعبد الحرية الفردية، فيما تُبعد العوامل والمبادئ الروحية والنظرية التي تذكّرنا بالجانب الميتافيزيقي الأجوف، فالبرجماتي يفكر بذهنية الرأسمالي الذي لا يستثمر دولارا إلا ليحني عشرة، وإن كان شعار الرأسمالية: أتركه يعمل دعه يمر، فإننا نُضيف إليه ما تبقى من الشعار: ولا تسأله عن نواياه أو دوافعه، بل اسأله عن النتائج التي يريد تحقيقها. هذا الأمر طبيعي، فالبرجماتية نشأت في جو تسوده وتحكمه قوانين الاقتصاد الحر الذي لا يبالي بالمبادئ والمثل العليا في سبيل ما يصبو لتحقيقه من نتائج مفيدة، حتى وإن صاحبت تلك النتائج بعض الأضرار، فالأمر يعد طبيعيا.

5- امتدادات المصطلح وتجلياته عبر التاريخ:

إذا اتفقنا أن البرجماتية - عموما - هي دعوة للنزول ونقل الفكر إلى أرض الواقع، والبحث عن الآثار المادية المترتبة لهذا الفكر، والاجتهاد في طلب شتى أشكال المنفعة، فلا شك أننا سنجد لهذا الأمر تجسيدا في الواقع، لا حصر له، وسنقف عند المحطات التالية من تاريخ الفلسفة.

1- كان في القرن الخامس ق م، عبر المدن والدويلات اليونانية مفكرون أُطلق عليهم تسمية (السفسطائيون)، وهم جماعة من المعلمين المتفرقين، اتخذوا التدريس حرفة يقتاتون منها، فكانوا يرتحلون من مدينة لأخرى يُلقون المحاضرات والدروس على الشباب الثري مُقابل أجرة يدفعونها لهم، فيعلمونهم أصول وتقنيات النجاح في إدارة النقاش ومن ثمة الفوز على الخصم خصوصا في النشاط السياسي من أجل اكتساب مهارة الإقناع والفوز بمناصب سياسية وحكومية، في ظل الديمقراطية الأثينية المباشرة.

يُعد بروتاغوراس، زعيم هذه الفرقة، وقد اتخذ المبدأ التالي شعارا لفكره: 'إن الإنسان هو مقياس الأشياء جميعا'. يعني أن كل واحد منا هو المؤهل الوحيد للحكم على الأشياء والقضايا بالصدق أو

¹ Edmund Husserl, La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale, trad. Gérard Granel, Gallimard, 1976, p 04.

بالكذب، وذلك حسب إحساساته وانطباعاته. فإن ظهر له أن الموضوع مفيد وله قيمة ما، وذلك تبعا لإحساساته هو، فيحكم عليه كذلك، وإن بدا له عكس ذلك فيحكم عليه كذلك بما يتناسب مع ميوله.

إن بروتاغوراس يعتبر أن " جميع الأشياء التي تبدو للإنسان أنها موجودة فهي موجودة وجميع الأشياء التي لا تبدو لأي إنسان أنها موجودة فهي غير موجودة أيضا"¹. إذن فمن أجل أن يُعتبر الموضوع أو القضية صحيحة، صادقة ويجب طلبها، فينبغي أن تكون نافعة لصاحبها أو لها آثار إيجابية في الواقع، وإلا فلا قيمة لها. وفي ذلك روح البرجماتية كلها.

2- إنه معلوم لدى العام والخاص أن أفلاطون مُعلم أرسطو، وربما يكون من المعلوم لدى البعض أيضا، أن أفلاطون يُعد مؤسس المذهب المثالي، حيث لا يعترف للعالم الحسي الواقعي بقيمة، لأنه دائم التغير وأن القيمة الكبرى فقط لعالم المثل، وهو عالم الفكر الأبدي (الحقيقي الدائم). غير أن تلميذه أرسطو، لم يكن صورة طبق الأصل لمعلمه، بل كان ينتقده ويصحح آراءه دون أن ينقص ذلك شيء من الاحترام والولاء له، وكل ذلك من أجل الحقيقة.

يقول أرسطو عن معلمه: " ومع ذلك فإنني لا أخفي أن بحثا من هذا القبيل يمكن أن يكون بالنسبة لنا من الحرج ما دام أن مذهب (المثل) قد وضعه أشخاص أعزّاء علينا، ولكن لاشك في أنه سيعلم وسيرى كواجب حقيقي من جانبنا أننا لصالح الحق ننتقد حتى آرائنا الخاصة، خصوصا ما دمت أدعي أنني فيلسوف، وعلى هذا فيبين الصداقة وبين الحق، اللذان هما كلاهما عزيزان على أنفسنا، نرى فرضا علينا أن نُؤثر الحق"².

هذا في شأن علاقة التلميذ الفيلسوف بمعلمه الفيلسوف، أما في تجلي الفكر البرجماتي هنا، فإنه وبالرغم من أن أفلاطون أسس مذهب المثل، واتبعه لحد الآن نصف فلاسفة العالم، من العرب والغرب، إلا أن أرسطو خالفه وفضّل أن يتبنى مذهباً ينقل فيه الفكر إلى أرض الواقع، الواقع الحسي العيني الذي يؤثر فينا، والذي اعتمده علماء المنهج التجريبي أساسا ومُنطلقا لعلومهم التجريبية. فنجدده يقول ويردُّ على أفلاطون: " ويظهر أن مَنْ فقد حسا من الحواس، أنه يفقد علما من العلوم"³.

¹ أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط 1، 1954، ص 266.

² أرسطوطاليس، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمه من اليونانية بارتليميسانتيلير، ونقله إلى العربية أحمد لطفي السيد، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1924، د ط، ص 181.

³ أرسطو، أنالوطيقا الثاني، أو كتاب البرهان، تلخيص منطق أرسطو لابن رشد، تحقيق جبرار جهامي، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1992، د ط، ص 422.

إذن فأرسطو لم يُبق على مذهب أفلاطون التجريدي الحالم، الذي يقلل من شأن الواقع، بل على العكس من ذلك طالب أن ينكبّ العقل وينطلق من أرض الواقع ليؤسس علماً مفيداً، وهو بالذات ما نجده عند علمائنا المسلمين أمثال الحسن ابن الهيثم وغيره: "ما دام العلم من إبداع العقل والعقل هبة من الله تعالى، فإن مبادئ العقل لا بد أن تصبح مبادئ الواقع أيضاً، وتلتجئ العلوم الطبيعية إلى المنهج التجريبي الاستقرائي ثم نحاول تفسيرها بوضع الفرضيات، وإذا تحقق ما فرض بالتجريب انتقل المطاف إلى القانون العلمي".¹

وكان علمائنا قد سبقوا الغرب في هذا الفهم للطريقة الصحيحة في التعامل مع الظواهر، ومن أولئك العلماء: فرنسيس بيكون، كلود بيرنارد وستيوارت ميل خاصة في وضع أسس المنهج العلمي التجريبي الذي يمكّن من تفسير الظاهر بشكل سليم، وبالفعل فالصدق ما شهد به الأعداء، فهذه المستشرقة الألمانية تقول عن علمائنا: "فهذه الطريقة في (قولبة) الرياضيات بقلب جبري وحسابي لهما من الأعمال التي حققها العرب ثم أخذها الغرب عنهم ليحتفظ بها حتى العصر الحديث".²

3- كما أننا عندما ننكب لنحلل مؤلف أفلاطون الشهير (الجمهورية)، كمشروع لتحقيق دولته الفاضلة التي حلم بها طوال حياته، بعض النواحي البرجماتية:

- يقسم أفلاطون سكان جمهوريته بشكل متوازن إلى ثلاث طبقات: العمال الحرفيون، الجند، الحراس. فأما العمال فيوفرون الغذاء والمأوى لمواطني المدينة، الجند لحمايتها، وأما الحراس فهم الفلاسفة لتسييرها. وقصد الفصل بين الواجب العام والمنفعة الذاتية، بين السلطة التنفيذية والمال، يُمنع الحراس من امتلاك ثروات خاصة: "وليس تحرير المملك على الحراس تشريعاً اقتصادياً ولكنه تدير سياسي".³

إذن فأفلاطون يمنع الحراس، وهم الحكام الذين يُسيرون الدولة من امتلاك ثروات خاصة، وذلك حتى لا تتعارض واجباتهم الحكومية مع ثرواتهم الخاصة وتنميتها. فتقسيمه المجتمع إلى هذه الطبقات بالذات نابع من دافع براماتي، فالعمال يُوفرون القوات والمسكن، الجند الشداد الغلاظ للدفاع عنها، وفي الوقت الذي يشقى فيه هؤلاء وأولئك، يحظى هو وأمثاله وينعمون بالحكم وبالتأمل في ملكوت السماوات والأرض. هل هناك أنانية أبشع من هذه؟.

- ومن أجل الحصول على جيل ونسل جيّد من الحراس أي الحكام، يجعل أفلاطون- الزواج في طبقة الحراس، إذ الحراس رجال ونساء أوصلتهم مهاراتهم وقدراتهم العقلية المتميزة إلى

¹ علي عبد الله الدفاعي، المدخل إلى تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981، ط 1، ص 93.

² زيفريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه مارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، 1993، ط 8، ص 160.

³ يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، لبنان، د ت، د ط، ص 103.

هذه المرتبة أو الطبقة، وهي أعلى مراتب المجتمع: " فيُعقد سنويا وفي أحسن الأوقات وأسعد الطوالع حفلات دينية يجتمع فيها الحراس من الجنسين، ويوهمونهم أن اقترانهم سيكون بالقرعة تفاديا للحسد، والحكام يقصدون في الحقيقة أن يعقدوا لكل كفاء على كفته. فيعقدون زواجا رسميا ولكنه مؤقت، الغرض منه الإنسال على قدر حاجة الدولة وتحسين النسل. ويوضع الأطفال في مكان مشترك يُعنى بهم فيه أناس خصوصيون وتأتي الأمهات يرضعنهم دون أن يعرفهم، فلا يوجد بين الحراس قرابة معروفة، فلا تعرف الأم ابنها أو بنتها وكذلك الرجل.¹

- ويذهب أفلاطون، من مُنطلق براجماتي محض، إلى أبعد من ذلك: " فهو يسمح بالتملك والأسرة للطبقتين الآخرين، مع شيء من المراقبة لمنع الزيادة البالغة في عدد السكان، وإن وُلد للشعب أو للحراس أطفال في غير الزمن المحدد أُعدموا، كما يُعدم الطفل ناقص التركيب، الوالد فاسد الأخلاق، الضعيف عديم النفع، والمريض الذي لا يُرجى له شفاء.²

4- ظلت الفلسفات القديمة، ولمدة طويلة، تبحث مواضيع مجردة وبعيدة عن الواقع، وظلّت تصف أحوال مجتمعات خيالية يحلم أصحابها بتحقيقها، ويضعون شروطا تعجيزية لتحقيق هذه التجمعات السعيدة من جهة، ومن جهة ثانية، ظلت هذه الفلسفات متصارعة، تنقد بعضها البعض الآخر، ولا شيء من كل ذلك تحقق سوى هدر الجهد والوقت. في مقابل ذلك نادى الفيلسوف الألماني المعاصر كارل ماركس، واضع أُسس ومبادئ الاقتصاد الاشتراكي، منتقدا بدوره كل تلك الفلسفات، لأنها-من وجهة نظره- اهتمت بالمُهم وتركزت الأهم، وفضل أن تُوجه تلك الجهود لخدمة الإنسان والمساهمة في تحريره من الاستغلال في كل أنواعه بقوله: " إن الفلاسفة حتى الآن لم يقوموا سوى بتفسير العالم بطرق مختلفة، لكنّ المشكلة باتت في تغييره.³

إن دعوة ماركس هنا براجماتية محضة أيضا، إذ يُنادي بضرورة الانتقال بالفلسفة من مجرد أداة للفهم والتفسير لأداة تأثير وتغيير، تساهم في تبديل أحوال المجتمعات والقضاء على المظاهر السلبية وكامل الظروف الاستغلالية لإحلال العدالة والمساواة.

5- انتقد كارل ماركس الاقتصاد والنظام الرأسمالي، وذكر عيوبه في كتابه بعنوان: رأس المال، معتقدا أن هذه العيوب ستتفاقم حتى يأتي يوم لا يقدر فيه العمال تحمّل غبن هذا النظام، وعملا بشعار ماركس (يا عمال العالم اتحدوا)، فيتحدون للقضاء عليه، وعندها يُقدم مشروعه الجديد، المُنقذ من الضلال والاستغلال، والمتمثل في الاقتصاد الاشتراكي.

¹ يوسف كرم، المرجع السابق، ص 104.

² المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

³ Marx, Engels, œuvre choisies, Thèse sur Feuerbach, Ed, sociale, T1, Moscou, 1978, p09.

لكن الرأسماليين الذين انتقدتهم كانوا أكثر براجماتية منه، فخوفا على مصالحهم، آثروا أن يتنازلوا ويتخلوا عن جزء من الأرباح والاستغلال في مقابل بقائهم لأمد بعيد، ليسترجعونه بعد ذلك ببطء. إذ بعد اطلاعهم على هذا الكتاب- المهدد في ظاهره، المنقذ في باطنه- وتعرفهم على عيوب نظامهم الذي قال عنه ماركس: إن الرأسمالية تحمل في طياتها تناقضات وبذور زوالها، وهي تحفر قبرها بأسنانها، أي أنها ستقضي على نفسها.

ماذا فعل الرأسماليون عندها؟ خافوا من هذا المصير الذي حدده ماركس وتوقعه لهم وقالوا نصف الخسارة أفضل من خسارة كبيرة، وأخذوا هذه العيوب والنقائص مأخذ الجد، وأخذوا يُعدّلون في بعض النواحي- ولو الشكلية منه- حتى يظهر للعمال أن أرباب العمل يهتمون بهم وأنهم لا يستغلونهم أبشع الاستغلال كما يفعل مصاص الدماء، على حد قول ماركس. وبدلاً من زوال الرأسمالية المستغلة وإحلال الاشتراكية العادلة- كما حلّم ماركس- قضت الاشتراكية على نفسها ولم تخرج من مهدها، وبقيت حبيسة درج مكتب صاحبها، فيما حافظت الرأسمالية على بقائها، بل وأكثر من ذلك تطورت وازدهرت وهي تعيش أزهى عصورها الذهبية، وهي تشكر جزيل الشكر فيلسوفنا المُعقّل على أغلى وأثمن هدية منحها لهم وهي كتابه المنتقد لهم والمنقذ في الحقيقة لهم.

6- إن في ممارسات بعض الدول في وقتنا المعاصر ملامح وإيمان بالروح البرجماتية. فالولايات المتحدة الأمريكية قد أدركت منذ زمن مُبكر أن في الدول المغلوبة على أمرها طاقات وخامات بشرية إذا سمحت لها الفرصة الجيدة والظروف المؤهلة، تفجرت وأنتجت دُرراً. ولأجل ذلك، فسفاراتها عبر العالم تفتح فرصة الهجرة القانونية إليها ضمن إجراءات انتقائية سنوية، فتختار من كل بلد حوالي ألف مهاجر ومهاجرة أكفأ تتوفر فيهم كل ما يتمناه المجتمع، وهم كما قال الشاعر:

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسِلاً فأرسل حكيمًا ولا توصه.

بعد حلول هؤلاء في الأرض الأمريكية، تتفاعل قدراتهم الوراثية الكامنة فيهم مع المحيط المهيأ، فيظهرون وينبتون بسرعة، وهم بالنسبة لمن لا يعرف مُعاناتهم وحرمانهم في دولهم، يقول أنهم يظهرون كالفطر، فيكون منهم العلماء، الأطباء، وكامل التخصصات، بل كثيرا ما يتفوقون على الأبناء المحليين، ويكبر عطاؤهم كلما طالت إقامتهم فيها واجتمعت لهم عوامل الإحاطة والرعاية من عوامل المحيط.

لو حسبنا هذه العملية بمصطلحي: النفقات والأرباح، نجد أن الدولة المستقبلة (أمريكا)، أنفقت دُرهمات قليلة، لكن ربحت المليارات. وهذا ما يُفسر ويبرر نجاحها المنقطع النظير. تماما كما تفعل الفرق الرياضية الكبرى في العالم، عندما تُنفق الملايين لاستقدام لاعبين من دولهم أو أنديةهم، لكن كم تربح من جراء استقدامهم؟ أعتقد أن هذا الفكر هو الذي سيحكم الفترات القادمة للبشرية ويُنتج برامج ومشاريع تطورها.

7- لو عدنا لتحليل عوامل تطور وازدهار العلوم والحياة عامة عند العرب المسلمين إبان عصرهم الذهبي، لوجدنا أن هناك عوامل تضافرت، وأعطت تلك المعجزة، ومن تلك العوامل: أن حكام المسلمين خلال العصر العباسي الثاني كانوا يحملون هذا الفكر البراجماتي، الذي يستثمر دينار ليجني مليار، ومن ذلك:

- هناك خطوة استشرافية براجماتية هامة قام بها الخليفة المأمون ت/218هـ، حيث تم إنشاء دار الحكمة التي فتحت أبوابها مشرعة للعلماء والكتاب والنساخ والمترجمين بسخاء ورحابة. وتعود هذه العناية إلى الصفات الشخصية التي تمتع بها المأمون حيث نال قسطا وافرا من العلم.¹ فكان هذا الخليفة وأبوه من قبل، هارون الرشيد، يدفعون للمترجم وزن ما يترجمه ذهباً.

- كان هذا الخليفة نفسه يوفد البعثات العلمية إلى الهند وفارس وغيرها، جزية الدول المنهزمة كتباً بدل المال: "جعل الحصول على كتب الفلسفة والعلوم في انتصاراته الحربية شرطاً من شروط وقف القتال وجزءاً أساسياً من غنائم الحرب كما فعل سنة 830 م بعد انتصاره على تيوفيل ملك الروم إذ أرسل وفداً اختار ما شاء من كتب الفلاسفة وجاء بخمسة أحمال منها فقيل تيوفيل ذلك وعدّه مكسباً كبيراً له، أما المأمون فعُدّ ذلك نعمة عظيمة عليه."²

إذن فالملك الروماني قدّر أن الكتب أرخص ثمناً لا فتداء نفسه وبلده من المال، فيما قدّر المأمون أن الكتب التي حصل عليها أغلى وأثمن بكثير من المال، على اعتبار أن المال كان متوفراً، فيما كانت الكتب النفيسة مفتقدة، خصوصاً إذا وجدت تلك النفائس من يُقَيِّمها.

بمثل هذه الإجراءات بلغت الحضارة الإسلامية ما بلغته من علو وورقي، فيما بلغت دول أخرى خاصة الأوروبية ما بلغته من دنو وانحطاط بسبب سوء تقدير للعلم والعلماء.

6- النقد والتحليل للمصطلح:

يعتقد عموم الناس أن النقد مرادف بالضرورة لذكر العيوب، غير أن ذلك من الأخطاء الشائعة، فالنقد يعني التقييم، أي ذكر السلبيات والعيوب، وذلك بغرض وبنية التصحيح، لكن الحقيقة الموضوعية تستدعي أنه إن كانت هناك إيجابيات، فمن النقد الصحيح ذكرها. وعليه فإننا نقول أن للبراجماتية سلبيات وهذا طبيعي، ولكن البراجماتية ليست دائماً خاطئة، وليس من العيب أن يفكر الإنسان، أو أن يسلك سلوكات براجماتية، وقد سبق الحديث عن بعض هذه النواحي.

¹ عمر التومي الشيباني، مقدمة في الفلسفة الإسلامية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990، ص 65.

² عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، د ط، 1970، ص 114.

- إن البراجماتي يجمع ويوحد بين الصادق والنافع، فهو عندما يعدُّ شيئاً ما صادقا لأنه نافع ومرضي، فهو يحد مجال تفكيره، ويوحد مختلفين، فهناك فرق بين كون الشيء نافعا ومُرضي، وبين كونه صادقا، إذ قد ينفع الشيء صاحبه دون أن يكون صادقا.
- ينادي البراجماتي بضرورة الابتعاد عن كل ما في الواقع من عوامل ومؤشرات والإبقاء والتركيز على عامل واحد هو إحساسات الفرد وفطرته، فما وافقها يُعد هو الصواب، وما عداها خاطئ يجب تركه، وهذا ليس من الموضوعية في شيء بل هو من صميم الذاتية. والحقيقة التي ينشدها البراجماتي ليست موضوعية، ليست حقيقة الجميع لكنها حقيقة ذاتية تختلف باختلاف الأفراد.
- يتباهى البراجماتيون بأن فلسفتهم ومذهبهم 'موضة' فلسفية جديدة، نادى بها فلاسفة أمريكيون في القرن 19 و20، غير أننا وجدنا جذورا لها في فجر التاريخ، منذ أن بدأ فلاسفة اليونان يفكرون وينتجون فلسفة، كانت البراجماتية، بل أبعد من ذلك وقبله بكثير، فلو تساءلنا كيف كان الإنسان البدائي يفكر؟ ألم يفكر بمبدأ المنفعة؟ فلو أعطينا الإنسان البدائي ماءً، هل كان سينظر إليه بنظرة المُحلل ليعرف مكوناته؟ أم كان ليشربه ويستفيد منه ويحفظ بقاءه؟.
- الفكر البراجماتي، فكر انتهازي ضيق، لا يستند لأي مقومات معنوية أو روحية. فعندما يعدُّ البراجماتي الحق ما جلب لصاحبه منفعة ولذة دون الاهتمام بما يترتب عن هذا الفعل من أضرار للآخرين، يجعلنا هذا الأمر نراجع مفهوم الحق لديهم، إذ ليس من مرادفات الحق الإضرار بالغير، فلو احتاج الواحد منا نقل مصابٍ له إلى المستشفى لإنقاذه من الموت، هل يُسمح له أن يقود مركبته بسرعة حيث يُصيب العشرات من المارة فيقتل من يشاء ويُصيب من يشاء؟.
- البراجماتية فلسفة لا دينية، فهي لا تعترف بأي دين، ولا تحترم أيُّ مثل أو قيم. كيف لا وهي لا تعترف إلا بالمصلحة، المصلحة الفردية وحسب، عملا بالمثل القائل: أنا أولا وبعدي الطوفان، وعلى القارئ تصور الإنسان دون دينٍ يوجهه ويضبط تصرفاته، وهذا بالضبط ما يفسر لنا الوضعية التي وصلت إليها أمريكا، أكبر الدول البراجماتية، أو بالأحرى أكبر الدول انتهازية واستغلالا للدول المغلوبة على أمرها، وهذا ينسحب على باقي الدول التي تنتهز ذات السياسة، في كامل الميادين والمجالات.
- وأخطر هذه الحالات عندما تخطط هذه القوى العاشمة، في مكاتب استخباراتها، حروبا ضد بعض الدول وضد شعوبها مدّعية أنها ستزيل منها بعض العناصر المجرمة الخطيرة التي تهدد هذه الدول المستضعفة، وتتعهد تلك القوى أن هذه الحرب ستكون: " عمليات جراحية دقيقة دون خسائر ولا تستغرق أكثر من يوم أو بعض يوم"، ثم ما إن تبدأ الحرب حتى يعمّ الدمار الشامل على

هذه الدول، ولا تقوم لها قائمة بعد ذلك إلا ما شاء الله تعالى، والغريب في الأمر أن تلك القوى العظمى تطالب هذه الدول بنفقات الحرب، وفي الواقع لا ندري مَنْ ينبغي أن يعرض مَنْ؟.

- في البراجماتية دعوة لنبد القوانين الشرعية السماوية وكذا الوضعية، ودعوة للرجوع لشريعة الغاب، حيث من حق كل واحد منّا السعي لتحقيق منافعه، وإذا تصرف الجميع وفق هذا المبدأ، حلت الفوضى العارمة وأصبح الكل ضد الكل، وهذا مجتمع أقرب ما يكون للحيوان منه للإنسان.

- لا وجود للشيء في ذاته عند البراجماتي، فلا حق في ذاته ولا كذب في ذاته ولا خير ولا شر في ذاته، بل كل هذه القيم تُقاس بآثارها وما يترتب عنها من نتائج، فإن كان الشيء حقا، وصادقا، وخيرا ولم يكن نافعا، فهو ليس حقا ولا صادقا ولا خيرا. وعلى العكس من ذلك، فإن صار الكذب أو الشر مربحا ونافعا، فهو ليس كذبا ولا شرا، لذا فهم يدّعون أن (كذبة تُحيي خير من صدقٍ يُميت)، وهذا يعني أن الخير قد يغدو في المساء شرا، والكاذب اليوم صادق غدا وهكذا، وهذا خلط للقيم والمثل التي لا يكون الإنسان بدونها إنسانا.

ولكن هذا لا يمنع من أن يكون للبراجماتية جانب إيجابي، وهل من العيب أن يُفكر الإنسان براجماتيا أي نفعيا؟.

إنه ليس من العيب في شيء أن يُفكر المرء بصورة براجماتية، بشرط واحد فقط، إذا استند الفكر البراجماتي إلى الدين. فالدين خصوصا الشرعي، كالإسلام تحديدا، سيكون كحاجزي الجسر التي تمنعنا من السقوط، صمام الأمان الذي يمنع الانزلاقات التي حذرنا منها سابقا. ولو عُدنا لحكامنا في العصر الذهبي الذي أشرنا لبعض ملامحه، لوجدنا أن الحاكم كان يفكر براجماتيا، لكنه لم يضرب أحدا على يده، كما يقال، واقترح الخيارات على الملوك الرومان وهم مَنْ فضّلوا تلك الحلول، إذن لم يكن في العملية إي استغلال، والكل كان راضيا.

وكذلك لو أخذنا مثالا من الحياة الاقتصادية، لقلنا أنه بإمكان المستثمر الاقتصادي أن يُشغل ثروته ويُنميها، لكنه يلتزم مع عماله وفق عقدٍ براجماتي حيث يكون فيه الطرفان: " رابح- رابح ". وهذه الحالة بمقدورها أن تتحقق في ظل الاقتصاد الإسلامي، الذي يعتني بالجانب المادي (الربح)، وكذا بالجانب الروحي (حقوق عماله وشعورهم).

تذكروا هنا ما قلناه عن الاقتصاد الرأسمالي من أنه يقوم على الحرية المطلقة لصاحب المال، حيث يحق له استثمار ماله في ما يشاء وكيف يشاء، ولا قدرة أو إمكانية لعماله من التدخل في تسيير شؤون ثروته. وعملا بمبدأ " دعه يعمل، اتركه يمر"، وعملا بشعار الرأسمالية المُجحف تجاه العمال: " أنتم هنا لتعملوا لا لتفكروا"، فالمالك يمنعهم حتى من مجرد إبداء الرأي في مراحل العملية الإنتاجية، مع أنهم الأقرب إلى معرفة الصواب والأصوب للشركة وللمواد الأولية والآلات التي اقتنيت مؤخرا، إذن فإلهم ترجع الكلمة الفصل في العمل، وإنه من الأفيد للمالك أن يفيد

عماله بمعرفتهم التي لديهم، فهو في الحقيقة لا يملك إلا المال، لكنهم يملكون في المقابل كل تفاصيل الإنتاج. إذن عندما يملئ الإيمان قلب المالك، ويدرك بأن المال مال الله تعالى، وهو مستخلف فيه فقط عملاً بالآية التالية: " وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه"، وقوله تعالى، " وما أنفقتم من خير فهو يُخلفه وهو خير الرازقين". إذن يمكنه التوفيق بين العمل على تنمية المال دون الإضرار بالعمال.

خاتمة:

وعليه نقول ختاماً لهذا البحث، أنه إذا تصرّف الفكر البراجماتي أو أي فكر بشري آخر، بمفرده دون ضوابط أو قيود تُديره وتوجهه، فتُكمل ما به من نقص وتُصلح ما فيه من انزلاق واعوجاج، والضوابط هذه لا ينبغي أن يضعها أو تصدر عن العقل الناقص أصلاً، لأن ذلك يُمثل عائقاً له بل ينبغي أن تصدر عن كامل والكامل هو الله تعالى.

لقد قال الله تعالى في مُحكم التنزيل: " ولقد كرّمنا بني آدم " وهذا التكريم هو أنه منحه العقل، لكن لماذا بعث الله تعالى للإنسان المُكرّم الأنبياء والرسل؟ أليس من أجل إكمال ما فيه من نقص، أو إصلاح ما وقع فيه من انحراف، والحمد والشكر التامان الأكملان لله وحده سبحانه وتعالى.

الهوامش:

1- باللغة العربية:

- اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، المجلد 2، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط2، 2001.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، د ط.
- محمود إبراهيم السعداني، حضارة الرومان، منذ نشأة روما وحتى نهاية القرن الأول الميلادي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة، 1988، ط 1.
- عبد الرحمن بدوي، خريف الفكر اليوناني، دار القلم، بيروت، 1979، ط5.
- حربي عباس عطيتو، ملامح الفكر الفلسفي عند اليونان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992، د ط.
- محمد الخطيب، الفكر الإغريقي، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 1999، ط 1.
- مصطفى النشار، مدخل لقراءة الفكر الفلسفي عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، د ط.
- أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط 1، 1954.
- أرسطوطاليس، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمه من اليونانية بارتليميس سانهليز، ونقله إلى العربية أحمد لطفي السيد، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1924، د ط.

- أرسطو، أنالوطيقا الثاني، أو كتاب البرهان، تلخيص منطق أرسطو لابن رشد، تحقيق جبرار جهامي، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1992، د ط.
- علي عبد الله الدفّاعي، المدخل إلى تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981، ط 1.
- زيغريدهونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه مارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، 1993، ط 8.
- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، لبنان، د ت، د ط.
- عمر التومي الشيباني، مقدمة في الفلسفة الإسلامية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990.
- عمرفروخ، تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، د ط، 1970.

2- باللغة الفرنسية:

- Serge Hutin, La Philosophie Anglaise et Américaine, PUF, 2^{ème} ED, Paris, 1963 .
- William James, Le Pragmatisme, traduit par E. Le Brun, FLAMMARION, Paris, 1968.
- Bertrand Vergely, Dico de la Philosophie, Editions MILAN, Toulouse, France, 1998.
- Gérard Deledalle, La Philosophie Américaine, ED. L'Age de l'homme, Lausanne, Suisse, 1983.
- Edmund Husserl, La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantal, trad. Gérard Granel, Gallimard, 1976.
- Marx, Engels, œuvre choisies, Thèse sur Feuerbach, Ed, sociale, T1, Moscou, 1978.